الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين القبول والرفض

د/ عفاف عطية الله ضيف الله المعبدي

كلية الدعوة وأصول الدين ــ جامعة أم القرى

الملخص:

هذا البحث يهدف إلى استجلاء حقيقة الخلاف بين العلماء في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، من خلال بيان آراء العلماء المؤيدين والمعارضين ، و استعراض أدلة المؤيدين والمعارضين ومناقشتها. وقد اعتمدت في ذلك على استقراء الأراء للفريقين وتفنيدها بما يبين وجه الحق فيها ؛ متخذة من شروط التفسير العلمي وضوابطه التي حددها العلماء مقياسا أقيس به تلك الأراء .ومن أبرز **نتائج** هذا البحث:

- أن القرآن الكريم أنزله الله تعالى ليكون كتاب هداية للناس؛ وأحد أهم وسائل الهداية بيان إعجازه العلمي .

- يعد الإمام الشاطبي رحمه الله من أبرز المعارضين ، والإمام الغزالي رحمه الله من أبرز المؤيدين وعلى آرائهما بنيت آراء من بعدهم.

- أن مراعاة الشروط والضوابط التي حددها العلماء أثناء التفسير العلمي للقرآن يقي المفسر- بإذن الله- من الانحراف فيه ، والخلل بأحد هذه الشروط هو انحراف تبعته على المفسر لا على التفسير العلمي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

المـقـدمـة

الحمدلله رب العالمين، منزل الكتاب على نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم قد تبوأ سدة الصدارة في حياة المسلمين، فالتفوا حوله ينهلون من معينه الذي لا ينضب، فكان نوراً لعقولهم، مرشداً لهم في حياتهم، وقبسا وضاءً لأرواحهم ونفوسهم .

كيف لا، وهو الذي رسم لهم معالم الطريق، وهداهم إلى الصراط الحق المستقيم، فحث لأجل ذلك على التأمل والنظر، ودعاهم للتدبر والتفكر، فقال عز شأنه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس :101]، إلى غير ذلك من الآيات التي تحوي مضامين علمية والتي تظهر بلا شك أنه منزل من عند الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82].

وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن حتى أنها بلغت أكثر من (750) آية، ولا شك أن هذا العدد قد لفت أنظار العلماء إليها، وإلى ما تحويه من مظاهر كونية علمية، ومن هنا فقد ظهر الاهتمام بنوع جديد من إعجاز القرآن ألا وهو الإعجاز العلمي.

ولئن كان الإعجاز البياني متفقاً على كونه أعظم وجوه الإعجاز؛ إذ هو الذي تحدى الله به العرب في عصرهم، فإن الإعجاز العلمي لم يلق مثل هذا الاتفاق على قبوله، بل اختلف العلماء حوله بين مانع ومؤيد.

ولأجل ذلك أحببت أن أسهم بقلمي في إيضاح حقيقة هذا الموقف من العلماء فكان هذا البحث والذي هو بعنوان: (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين القبول والرفض) .

ولهذا الموضوع بلا شك أهمية بالغة، ففيه خدمة لكتاب الله تعالى والإطلاع على بعض أسراره، والإسهام ولو بجهد المقل في خدمة الثقافة القرآنية، كما أن الرغبة الملحة عند المثقفين في استجلاء الحقيقة حول هذا الموضوع الذي كثر فيه الجدل والنقاش بين مؤيد ومعارض دافع آخر للكتابة في مثل هذا الموضوع، خاصة وأن هذا العصر هو عصر الاكتشافات العلمية والثورة التقنية، فكان لا بد من بيان حقيقة العلاقة بين كتاب الله والعلم التجريبي.

- خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ؛ جاءت على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب كتابته ومنهج البحث والباحثة وخطة البحث.

التمهيد : ، وفيه مفهوم الإعجاز العلمي والتفسير العلمي والعلاقة بينهما.

الفصل الأول: آراء العلماء في الإعجاز العلمي، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آراء أشهر العلماء المعارضين قديماً وحديثاً.

المبحث الثاني: آراء أشهر العلماء المؤيدين قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني: أدلة المعارضين والمؤيدين ، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أدلة المعارضين للإعجاز العلمي.
المبحث الثاني: أدلة المؤيدين للإعجاز العلمي.
الخاتمة: وفيها ذكر لأهم نتائج البحث.
الفهارس: وفيه :
* فهرس المصادر والمراجع.
* منهج البحث:

يقوم منهج البحث في هذا الموضوع على تتبع ما كتب حول هذا الموضوع بقدر الإمكان، واستعراض آراء أبرز العلماء المؤيدين والمعارضين قديماً وحديثاً من خلال كتبهم ومن ثَمَّ بيان الأدلة التي ساقها كل منهم، والموازنة بينهما، ونقد ما يحتاج إلى نقد وبيان وجه الحق فيه، مع استعراض بعض الأمثلة للفريقين، فما كان منها مشتملاً على حقائق علمية ثابتة موافقة لشروط التفسير العلمي التي حددها العلماء أيدتها وشددت أزرها لينتفع بها الدارسون لهذا العلم؛ وأما ما كان منها مخالفاً لتلك الشروط فقد نقدتها وكشفت- بعون الله- الحق فيما تناولته من مسائل، غير متعصبة لرأي ولا متحاملة على أحد، يحدوني في ذلك الإخلاص لله تعالى، وخدمة كتابه الكريم، والدفاع عنه، والرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق بإذنه تعالى.

كما كان من منهجي في هذا البحث عزو الآيات إلى سورها مع الحرص على كتابتها بالرسم العثماني ،وتخريج الأحاديث المذكورة في البحث، فإن كانت في الصحيحين فقد اكتفيت بذلك، وإن كانت في غيرها خرجت الحديث من مصدر أو مصدرين مع ذكر حكم العماء فيه قديماً وحديثاً إن وجد، وقمت أيضاً بترجمة الأعلام المذكورين في البحث غالباً، وبالتعريف بالمصطلحات والكلمات الغريبة التي رأيت الحاجة لتعريفها من المصادر والمراجع الخاصة بذلك، ثم أنني متى نقلت قول عالم بنصه وضعت ذلك بين علامات التنصيص المعروفة وأشرت في الهامش إلى المصدر مباشرة وإن كان بمعناه أو حصل تصرف فيه بتقديم أو تأخير مثلاً لم أضع قوله بين علامات التنصيص، وأحلت في الهامش بكلمة (انظر...)، كما أنني لم ألتزم ذكر معلومات المصدر أو المرجع كاملةً إلا في فهرس المصادر والمراجع حتى لا أثقل الهامش، وأخيراً فإنني وضعت فهرسين للبحث وهما فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

هذا وحسبي أني بذلت في هذا البحث قصاري جهدي، وتوخيت فيه السداد طاقتي، فإن كان ما جمعته وحررته صواباً فذلك من الله وحده، وله الفضل والمنة والثناء الحسن، وإن كانت الأخرى فذلك من نفسي والشيطان، وأتوب إلى الله واستغفره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تمهيد

مفهوم الإعجاز العلمي والتفسير العلمي والعلاقة بينهما

أولاً: مفهوم الإعجاز العلمي:

أ- مفهوم الإعجاز:

الإعجاز مشتق من العجز، والعجز: الضعف أو عدم القدرة، ويقال: عَجَزَ يَعْجَز عَجْزاً، فهو عاجز: أي ضعيف ، ويقال: أعجزني فلان، إذا عَجَزت عن طلبه وإدركه.

والإعجاز مصدر أعجز: وهو بمعنى الفوت والسبق (1).

وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله، مع استمرار هذا العجز على تراخي الزمن وتقدمه (2).

هذا ولم ترد لفظة إعجاز في القرآن الكريم، كما لم ترد في كتب الأولين إلا على يد أبي عبدالله بن يزيد الواسطي المعتزلي ت (306هـ)حيث كتب كتاباً سماه (إعجاز القرآن) (3). ولا مانع من استخدام هذا المصطلح وإن لم يرد في كتاب ولا سنة، فقديماً قال العلماء: لامشاحة في الإصطلاح (4).

ب- مفهوم العلم:

لغة: مأخوذ من عَلم يَعْلَم عِلْماً، وهو نقيض الجهل وعلم الشيء: عرفه وفهمه، وهو يرادف الجزم أيضاً عندما يقابل بالظن أو الشك أو الوهم (5).

اصطلاحاً: اختلفت معانيه:

فهو عند الفلاسفة (6) " صورة الشيء الحاصلة في العقل"،وعند المتكلمين (7) " صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به"،أما عند الماديين(1) المحدثين فهو " خاص باليقينيات التي تستند على الحس وحده" (2) .

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس أحمد بن زكريا، مادة (عجز) ص (712)، لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم، مادة (عجز) (370/5)، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص (322).

(2) انظر: فتح الباري لابن حجر أحمد العسقلاني (582/6)، المعجزة العلمية في القرآن والسنة، للشيخ: عبدالمجيد الزنداني/ مطبوع ضمن كتاب: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي بمكة المكرمة ص (17)، وإعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي ص (139).

(3) انظر: البيان في إعجاز القرآن. د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص (29) ، مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر ص (28).

(4) لأن أصل المادة (عجز) وارد في القرآن الكريم في أكثر من موطن، لقوة دلالته على المعنى المراد، ولاستخدام علماء المسلمين عبر التاريخ الإسلامي هذا المصطلح وأمثاله من غير مشاحة ولا نكير. انظر: البيان في إعجاز القرآن للخالدي، ص (34-46)، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (تاريخه وضوابطه). د/ عبد الله المصلح ص (19-21).

(5) انظر:تهذيب اللغة للأزهري محمد بن أحمد، مادة (علم) (2554/3)، الصحاح للجوهري إسماعيل بن حماد، مادة (علم) (1613/4)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إخراج: إبراهيم مصطفى وآخرون (646/2).

(6) الفلاسفة: هم علماء في الفسفة: والتي هي لفظ مشتق من اليونانية وأصله (فيلا- صوفيا) ومعناه: محبة الحكمة، وتطلق على العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، وتقوم على أساس تفسير المعرفة تفسيراً عقلياً، وتشمل عند القدماء جميع العلوم، وعند المحدثين تشمل المنطق والأخلاق وعلم الجمال وما وراء الطبيعة وتاريخ الفلسفة.

انظر: المعجم العربي الأساسي لمجموعة من علماء اللغة العرب، تحت إشراف: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـوم، مادة (ف ل س ف) ص (949). والمعجم الفلسفي لجميل صلبيا (160/2).

(7) المتكلمون هم المشتغلون بعلم الكلام والذي هو علم يقوم على إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية، كالجهمية والمعتزلة وغيرهم.

والمراد بالعلم في مصطلح (الإعجاز العلمي): هو العلم التجريبي والذي يتناول العلوم الكونية والمعارف والصنائع، وما جدّ ويجدُّ في العالم من فنون ومعارف، كعلم الهندسة والحساب والهيئة والاقتصاد والطبيعة والكيمياء والنبات وعلم طبقات الأرض وغيرها (3).

ج- مفهوم الإعجاز العلمي:

هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة (4) ، أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يظهر صدقه فيما أخبره به عن ربه سبحانه وتعالى، وهو باب من أبواب الإعجاز الغيبي (5) .

ثانياً: مفهوم التفسير العلمي:

أ- مفهوم التفسير:

لغـــــة: اختلف علماء اللغة في اشتقاق لفظ التفسير على قولين:

1- قيل: هو (تفعيل) من (الفَسْر) بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المشكل (6)، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:33]، أي تفصيلاً (7).

2- وقيل: هو (مقلوب) من (سَفَرَ) معناه أيضاً: الكشف: يقال: سَفَرَت المرأةُ سفوراً إذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء . وإنما بنوا (فَسَرَ) على التفعيل فقالوا: (تفسير) للتكثير (8).

وقال الراغب الأصفهاني: " (الفَسْرُ) و(السفْرُ) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جُعل الفَسْرُ لإظهار المعنى المعقول...وجعل السَفْرُ لإبراز الأعيان للأبصار" (9) .

وهكذا تلتقي مادتا (ف س ر)، (س ف ر) في معنى الكشف، " ثم نرى السفر: الكشف المادي والظاهر، والفسر: الكشف المعنوي والباطن، والتفعيل منه التفسير، كشف المعنى وإبانته"(10).

اصطلاحاً:

انظر: المعجم العربي الأساسي، مادة (ك، ل، م) ص (1052)، مقدمة ابن خلدون عبد الرحمن الأشبيلي ص (458) .

(1) الماديون: هم الذين يفسرون الوجود تفسيراً مادياً بحتاً، فيؤمنون بكل ما هو محسوس وينكرون ما وراء ذلك.
انظر: المعجم العربي الأساسي، مادة (م د د) ص (1124).

(2) انظر: هذه التعريفات في كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني محمد عبد العظيم (6,5/1) والكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى العكبري ص (616,615,612) .

(3) انظر: المعجزة العلمية للزنداني ضمن كتاب تأصيل الإعجاز العلمي ص (17)، التفسير العلمي في الميزان، د/ أحمد عمر أبو حجر ص (70).

(4) الحقيقة العلمية: هي المفهوم الذي تجاوز المراحل الفرضية والدراسات النظرية حتى أصبح ثابتاً مجمعاً عليه من قبل كافة العلماء المختصين، كتمدد المعادن بالحرارة، وإنكماشها بالبرودة.
انظر: المعجم الأساسي العربي، مادة (ح ق ق)، ص (338)، والإعجاز العلمي تاريخه وضوابطه للمصلح ص (26).

(5) انظر: المعجزة العلمية للزنداني ضمن كتاب تأصيل الإعجاز العلمي ص (14)، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أ/د عبدالله المصلح ود/ عبد الجواد الصاوي (28).

(6) انظر: تهذيب اللغة للأزهري، مادة (فسر) (2787/3) ومقاييس اللغة لابن فارس ، مادة (فسر) ص (818).

(7) انظر: تفسير الطبري لابن جرير محمد الطبري (448/17)، تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور السمعاني (18/4).

(8) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (سفر) ص462)، لسان العرب لابن منظور، مادة (سفر) (597/4-598).

(9) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص (281-239)، ونقله عنه الزركشي في البرهان في علوم القرآن (163/2).

(10) التفسير معالم حياته، منهجه اليوم، لأمين الخولي ص (5).

تعددت تعريفات العلماء لمصطلح (التفسير) ولعل أخصرها وأيسرها وأوضحها ما عرفه به الإمام الزركشي (1) رحمه الله في كتابه البرهان حيث قال: " علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمد ذلك من علم اللغة، والنحو، والصرف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ" (2) .

وهذا التعريف عني فيه واضعه بربط الدلالة وبيان المعاني بعلوم اللغة.

وعرفه بعض العلماء بأنه: " علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية" (3) .

وهذا التعريف- يجانب إيجازه- قد جعل هدفه الأعلى إبراز هداية القرآن وتعاليمه وبيان مراد الله حسب طاقة البشر، وهذا قيد مهم ؛ لأن المفسر لا يمكنه القطع بأن هذا مراد الله تعالى (4) .

ب- مفهوم العلم: وقد سبق بيانه في هذا البحث (5) .

ج- مفهوم التفسير العلمي:

هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان (6).

ثالثاً: العلاقة بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي:

ذهب أكثر الباحثين إلى عدم التفريق بين مصطلح (الإعجاز العلمي) ومصطلح (التفسير العلمي) (7)، باعتبار أن ما جاء من حقائق علمية أشارت إليها آيات القرآن الكريم تعد وجهاً من أوجه تفسير تلك الآية.

أما من فرق بينهما فذهب إلى أن التفسير العلمي أعم من الإعجاز، فكل إعجاز علمي هو من قبيل التفسير العلمي ولا عكس، وأهم الفروق بينهما هي: (8)

1- أن الإعجاز العلمي خاص بما يتعلق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق الكونية، والتفسير العلمي يتناول أيضاً النظريات (9) ، والإشارات الضمنية في تفسير النصوص الكونية.

2- أن الإعجاز العلمي قضية مسلمة لا نزاع فيها إذ الجميع مقر بأن القرآن لم ولن يصادم حقيقه علمية وهذا بحد ذاته إعجازاً علمياً، أما التفسير العلمي فإنه مثار البحث والمناقشة والخلاف بل هناك من لايجيزه (1).

---

(1) هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، بدر الدين أبو عبدالله، من العلماء الأصوليين في فقه الشافعية، ومصنفاً محرراً في في عدة فنون، من مؤلفاته: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، البرهان في علوم القرآن، اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة وغيرها، توفي في مصر سنة (794هـ).

انظر: شذرات الذهب لابن العماد (335/6)، الدرر الكامنة لابن حجر (397/3)، الأعلام لخير الدين الزركلي (60/6).

(2) البرهان في علوم القرآن (33/1).

(3) منهاج الفرقان في علوم القرآن، محمد أبو سلامة (6/2).

(4) انظر: التفسير العلمي لأبي حجر ص (22)، بحوث في أصول التفسير، د/ فهد الرومي ص (80-84).

(5) انظر: البحث ص (6).

(6) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د/ فهد الرومي (549/2)، المعجزة العلمية للزنداني ضمن كتاب تأصيل الإعجاز العلمي ص (33) .

(7) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (تاريخه وضوبطه)، د/ عبد الله المصلح ص (38).

(8) انظر هذه الفروق: في المرجع السابق ص (38).

(9) النظرية: توضيح علاقة الأثر والسبب بين المتغيرات وذلك لشرح ظواهر معينة، والنظريات مراتب بحسب قربها وبعدها وبعدها من الحقائق، وأقوى النظريات هي تلك التي تقدم شرحاً أكثر منطقية لتلك الملاحظات. انظر: أصول البحث العلمي ومناهجه، د/ أحمد بدر، ص (74) .

3- أن التفسير العلمي إذا لم تراع ضوابطه وشروطه (2) قد يكون سبباً في وقوع الخطأ في فهم كتاب الله تعالى، لسعة مجاله، ولذا فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين انحرفوا فيه عن جادة الصواب لمخالفتهم تلك الضوابط.

4- أن الإعجاز العلمي أوضح من ذلك وأبعد، والخطأ فيه أقل، حيث إنه غالباً ما يقع بسبب عدم الربط بين الحقيقة الشرعية والكونية.

[1] انظر: مقدمة تفسير الطبري للشيخ أحمد شاكر (74/1)، واتجاهات التفسير، د/ فهد الرومي (601/2).
[2] سيأتي لاحقاً بإذن الله عرض لأقوال الفريقين مع ذكر للضوابط والشروط في هذا البحث.

الفصل الأول

آراء العلماء في الإعجاز العلمي

آراء أشهر العلماء المعارضين قديماً وحديثاً:

أولاً: المعارضون قديماً:

* الإمام الشاطبي (1) رحمه الله:

يعد من أبرز المعترضين على التفسير العلمي للقرآن، وقد بنى اعتراضه على مقدمات ذكرها في كتابه الموافقات (2) منها:

1- أن الأمة التي أرسل منها النبي ﷺ أمية بحسب ما أرشد إليه القرآن في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:2]، بل وصف نبيه ﷺ فقال ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف:157] .

وقال: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:158].

وفي الحديث: (نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا) (3).

ففسر معنى الأمية في الحديث: "أي: ليس لنا علم بالحساب ولا الكتاب".

وإذا كانت الأمة أمية، فإن الشريعة التي نزلت فيها أمية كذلك.

2- أن العرب الأميين الذين نزل فيهم القرآن الكريم، وتحداهم الله أن يأتوا بمثله كان لهم معرفة ببعض العلوم ؛كعلم النجوم، قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]. وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧] ، وكعلم الأنواء وهو ما يتصل بالرياح ونزول المطر،وبعض مسائل الطب الناشئة عن تجارب الأميين غير مبنى على علوم الطبيعة التي يقررها الأقدمون وغير ذلك من العلوم التي أقر بعضها الشارع وأبطل بعضها كعلم الكهانة والعيافة وغير ذلك.

وإذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أمية لم تخرج عما ألفته العرب.

3- لقد جدَّت علوم بعد القرآن على هذه الأمة لم تكن معروفة لدى الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك كعلوم الطبيعيات والفلسفة والفلك إلى غير ما هنالك من علوم، وحينما تحدى الله العرب أن

---

(1) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، فقيه، أصولي محقق، له مؤلفات منها: الموافقات، والاعتصام وغيرها، توفي عام (790هـ).

انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد التنبكتي ص (46-50) وشجرة النور الزكية، محمد محمد مخلوف (231/1).

(2) انظر: الموافقات، للشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان (109/2-126).

(3) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الصوم، باب قوله ﷺ (لا نكتب ولا نحسب)، حديث رقم (1913) (126/4). ومسلم في صحيحه،كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، حديث رقم (1080) (761/2) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يأتوا بمثله، إنما تحداهم بما كان معلوماً عندهم، ولايجوز أن يكون قد تحداهم بما ليس كذلك، إذ لو تحداهم بشيء منه لقالوا هذا على غير ما عهدنا، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف، فلم تقم الحجة عليهم به، وذلك كما لو أن القرآن أنزل بلسان غير عربي لاحتجوا على ذلك بأنهم عرب وما أنزل عليهم غير عربي.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت:44].

وبعد هذه المقدمات يعلن الشاطبي رحمه الله رأيه في تفسير القرآن بما ليس معهوداً عند العرب والصحابة رضي الله عنهم مما جدَّ فيما بعد فيقول:

"إن كثيراً من الناس تجاوز في الدعوى على القرآن الحدّ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإلى هذا، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى، سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، ومما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك ذلك خوض ونظر، لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره، أما أن فيه ماليس من ذلك، فلا" (1).

ثم يناقش رحمه الله أدلة الفريق الآخر، الذي يرى جواز تفسير آيات القرآن علمياً، ويرد عليهم فيقول: "وربما استدلوا على دعواهم بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ونحو ذلك، وبفواتح السور وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكي من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء.

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور، فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب عهداً كعدد الجمل الذي تعرَّفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى وغير ذلك ،وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدعه أحد مما تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مـــا لا يقتضيه، كما لا يصح أن يذكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغيره ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه، والله أعلم ،وبه التوفيق" (2) .

(1) الموافقات (127/2-128).
(2) الموافقات (129/2-131).

ذلكم هو رأي الإمام الشاطبي الذي اقترن اسمه بهذه القضية، حتى لا نجد أحداً قديماً وحديثاً يعرض للقضية دون أن يذكر رأيه رحمه الله تعالى.

ثانياً: المعارضون حديثاً:

لم يقف علماء هذا العصر-كما يقول الشيخ الذهبي- موقف الإجماع على قبول هذا المنهج في التفسير- التفسير العلمي- بل نراهم مختلفين في قبوله والقول به (1).

وإذا كنا عرضنا سابقاً لأشهر من قال بالمنع من الأقدمين فسنعرض لآراء أشهر من قال بالمنع حديثاً.

ومـــــن هـــــؤلاء:

السيد محمد رشيد رضا رحمه الله (2):

فنحن نجده يلقي باللائمة على الذين يتجهون في تفسيرهم الاتجاه العلمي، ويخص بالذكر من القدماء: الإمام فخر الدين الرازي (3)، ومن المحدثين: صاحب تفسير الجواهر الشيخ طنطاوي جوهري (4) وإن لم يصرح باسمه، حيث يقوله في تفسيره المنار: " كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية، وهدايته السامية، فمنها ما يشغل عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو واستنباطات المقلدين وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده؛ كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها.

وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والبنات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن.

---

(1) انظر: التفسير والمفسرون، محمد محمد حسين الذهبي (497/2).

(2) محمد رشيد رضا ، مصلح ديني، تعلم اللغة والقرآن والفقه، وبدأت عنده نزعة إلى التصوف ورغبة مبكرة للعمل في ميدان الوعظ والإصلاح، تأثر بأفكار جمال الدين الأفغاني الإصلاحية، وارتحل بعد ذلك إلى مصر واتصل بالإمام محمد عبده الذي أصبح رائداً له في مجال الإصلاح وأصدر مجلة المنارة، تشمل مؤلفاته : تفسير القرآن في ضوء منهج التفسير الذي أخطه الشيخ محمد عبده هدر منه اثنا عشر جزءاً فقط، وله كتاب (الوحي المحمدي) و(شبهات النصارى وصحيح الإسلام) وغيرها توفي سنة 1935م.

انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د/محمد رجب البيومي، (235/1-250).

(3) هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، فخر الدين أبو عبد الله القرشي الرازي، المفسر المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، له مصنفات مشهورة منها: مفاتيح الغيب، كتاب المحصول، والمنتخب، ونهاية العقول، توفي بهراة يوم عيد الفطر من سنة (606هـ).

انظر: وفيات الأعيان (474/1) ، الأعلام للزركلي (6/ 313).

(4) الشيخ طنطاوي جوهري (1285هـ- 1308ه) ، التحق بالأزهر الشريف ولكنه عاد إلى قريته دون إكمال دراسته به، ليشتغل بالزراعة، ثم التحق بعد ذلك بدار العلوم وأكب على دراسته العلوم الحديثة، وقد حاول جاهداً الجمع بين القرآن وهذه العلوم فخرج تفسيره "الجواهر" في (25) جزءاً، وله مؤلفات أخرى منها: (أين الإنسان) وقد حاز بسببه على جائزة نوبل للسلام، وقد ترجم تفسيره وكتبه إلى اللغات الغربية.

انظر: الأعلام (333/3) والنهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، لبيومي (361/1-374).

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن من فنون العربية لابد منها، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضروريةكقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه،كل ذلك يعين على فهم القرآن" (1)

الشيخ محمود شلتوت (2) رحمه الله:

يعد من المعارضين لهذه الاتجاه في التفسير، حيث تحدث عن ناحيتين يجب تنزيه التفسير عنهما، فقال في مقدمة تفسيره لبعض سور القرآن:

"وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية واشتغلوا به على هذا النحو الذي أفادت منه العلوم والفنون، فإن هناك- مع الأسف الشديد- ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيداً عنهما احتفاظاً بقدسيته وجلاله، هاتان الناحيتان هما: ناحية استخدام القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه. وأحب أن أثبت هنا - بين يدي ما سأكتبه من التفسير- رأيي في هاتين الناحيتين واضحاً" (3) .

ثم تحدث رحمه الله عن الناحية الأولى وبيَّن رأيه منها بوضوح ثم قال: " وأما الناحية الثانية فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافاتهم الحديثة، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها، نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعال يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فتأولوها على نحو زيَّن لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة وطبقوا آياتـــه عـــــلى ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر أو وصف للسحاب أو حديث عن الرعد أو البرق تهللوا واستبشروا وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح، وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق..." (4) .

---

(1) تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا (7/1).

(2) محمود شلتوت، فقيه ومفسر وداعية مصلح، حفظ القرآن، وتعلم مبادئ اللغة، وهو أحد أعضاء مجمع اللغة العربية، وقد درس في الأزهر، ثم عين شيخاً له إلى وفاته، له(26) مؤلفاً مطبوعاً منها: التفسير، وحكم الشريعة، الإسلام عقيدة وشريعة، والقرآن والمرأة وغيرها. توفي سنة (1964م).
انظر الأعلام للزركلي (173/7)، النهضة الإسلامية لبيومي (447/1-467) .

(3) تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت ص (10).

(4) المرجع السابق ص (11).

ثم يستعرض بعض الآيات التي فسرت تفسيراً علمياً ويعقب على ذلك بقوله: "إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا، ولكن على حسب ما كانت توحي به إليهم أحوال زمانهم فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية" (1).

ثم يبين جوانب الخطأ في هذه الاتجاه فيقول: " هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ؛لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك، لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة، لأنها تعرّض للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الآخر. فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرَّضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه.

فلندع للقرآن عظمته وجلاله، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارات إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر..." (2) سيد قطب (3):

موقف سيد قطب رحمه الله من التفسير العلمي هو ذاته موقف الإمام الشاطبي رحمه الله ويظهر ذلك الموقف عند تفسيره لآية الأهلة وهي قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩] حيث قال: " إن الله حدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم؟ وهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال الهلال يبدو دقيقاً...الخ. كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية، وهي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله الأهلة؟ " (4) .

ثم يفسر رحمه الله لماذا بيَّن الله لهم ذلك دون غيره، فيقول: "لأن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين أن يتلمسوا مخالفته لهذه العلوم . إن كلا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود، وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً

---

(1) المرجع السابق ص (61).
(2) المرجع السابق ص (12).
(3) سيد قطب إبراهيم، كاتب ومفكر إسلامي معاصر، تخرج من كلية العلوم بالقاهرة سنة (1933م) واشتغل بالصحافة والتدريس، له مؤلفات عدة في الأدب والنقد والتفسير والدراسات الإسلامية وقد انضم لجماعة الإخوان المسلمين، ومن مؤلفاته: في ظلال القرآن، والتصوير الفني في القرآن، ومعالم في الطريق وغيرها، أعدم من أجل أفكاره في سنة (1966م).
انظر: الأعلام للزركلي (147/3-148)، المستدرك على معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ص (284).
(4) في ظلال القرآن، سيد قطب (180/1-182).

للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته، ومن بينهما طاقته العقلية التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامته، وإطلاق المجال لتعمل بالبحث العلمي في الحدود المتاحة للإنسان وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقـــــــة بطبيعة الحـــــــــال" (1).

وبعد أن بيَّن سيد قطب رحمه الله أغراض القرآن ومقاصده بهذا الإيجاز بيّن رأيه في مَنْ يفسر القرآن تفسيراً علمياً فقال: " وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه .

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها؛ لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه.

وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب، وقد ضمن له موازن التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه وطبيعة التناسق بين أجزائه، لايجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته ولا حتى بما يسميه حقائق علمية مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما ما يصل إليه البحث الإنساني-أيا كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه، وظروف هذه التجارب وأدواتها، فمن الخطأ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته- أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى علمية.

ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها، فهذه كلها ليست حقائق علمية حتى بالقياس الإنساني، وإنما هي نظريات وفروض كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق، ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب بظهور أداة كشف جديدة أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم- من نظريات متجددة متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا- تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا تليق بجلال القرآن الكريم.

---

(1) المرجع السابق (181/1).

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقية نهائية مطلقة، تعالج بناء الإنسان بناء يتفق بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ويستخدم بعض نواميسه في خلافته، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

الثالث: هي التأويل المستمر مع التمحل والتكلف لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا..." (1).

- الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (2) :

عقد الشيخ في كتابه القيم " مناهل العرفان في علوم القرآن" باباً بعنوان: (موقف القرآن من العلوم الكونية)، وفيه يعلن معارضته للتفسير العلمي للقرآن الكريم، يقول رحمه الله: "موقف القرآن من العلوم الكونية.... ومعنى هذا أن القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة لا يصدر مثلها عن مخلوق، فضلاً عن رجل أمي نشأ في الأميين وهو محمد ﷺ.

أولها: أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء وفي تفاضلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، ثم إن أمرها بعد ذلك هين بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالقرآن كما أسلفنا كتاب هداية وإعجاز ؛وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق، ولا يقصد القرآن مطلقاً من ذكر هذا الكونيات أن يشرع حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء، ولا يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية، ولا أن يزيد في علم الطب باباً ولا في علم التشريح فصلاً، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك....

ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن ومعارفه، فنظموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون، وهم في ذلك مخطئون مسرفون، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلاً، ولكن النية والشعور مهما حسنا لا يسوّغان أن يحكي الإنسان غير الواقع، ويحمل كتاب الله على ما ليس من وظيفته.... إن وظيفته في هداية العالم أسمى وظيفة في الوجود، ومهمة في إنقاذ الإنسانية أعلى مهمة في الحياة، وما العلوم الكونية بإزاء الهدايات القرآنية؟! أليس العالم الآن يشقى بهذه العلوم

---

(1) في ظلال القرآن (1/181-183).

(2) هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج من كلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، من أشهر كتبه: مناهل العرفان في علوم القرآن، توفي بالقاهرة سنة (1948م).
انظر: الأعلام للزركلي (210/6).

ويخترب وينتحر؟! ثم أليست العلوم الكونية هي التي ترمي الناس في هذه الأيام بالمنايا وتقذفهم بالحمم وتظهر لهم على أشكال مخفية مزعجة من مدافع رشاشة ودبابات فتاكة، وطائرات أزازة، وقنابل مهلكة، وغازات محرقة، ومدمرات في البر والبحر وفي الهواء والماء؟! وما أشبه هذه العلوم للإنسان بعد تجرده من هدى الله ووحي السماء بالأنياب والمخالب للوحوش الضارية والسباع الواغلة في أديم الغبراء.

ثانيها: أن القرآن دعا إلى هذه العلوم ما دعا إليه من البحث والنظر والانتفاع بما في الكون من نعم وعبر، قال الله سبحانه تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] .وقال جل شأنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ثالثها: أن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مربوبة له تعالى ومقهورة لمراده ونفى عنها ما علق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهي مألوهة ، وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هي خاضعة لقدرة الله وسلطانه.

رابعها: أن القرآن حين يعرض لآية كونية في معرضة من معارض الهداية، يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون، الخبير بأسرار السموات والأرض الذي لا تخفى عليه خافية في البر والبحر ،ولا في النجوم والكواكب، ولا في السحاب والماء، ولا في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية وأوقع من أوقع منهم في الإسرار، واعتبر هذه العلوم من علوم القرآن.

خامسها: أن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الكون، أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال في سمت واحد، وبحيث يمر النظم القرآني الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم إذا هو مجمل التفاصيل يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه باختلاف ما لديهم من مواهب ومسائل وعلوم وفنون..."(1).

ثم يعقب قائلا: " ولا أحب أن نتوسع في هذا، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة تموج وتضطرب باستنباط علوم الكون من القرآن أو بتفسير القرآن وشرحه بعلوم الكون وأحداثها ممـا لا نرى حاجة إليه خصوصاً بعد أن تبينت لنا أن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد، وأن أبحاثا كثيرة منها لاتزال قلقة حائرة بين إثبات ونفي، فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم، وما قرره علماء الطبيعة في الماضي يقرر غيره علماء الطبيعة في الحاضر، وما أثبته المؤرخون قديماً ينفيه المؤرخون حديثاً، وما أنكره الماديون وأسرفوا في إنكاره باسم العلم أصبحوا يثبتونه ويسرفون في إثباته باسم العلم أيضا، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم.

ثم هل يليق بعد ذلك كله أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية القلقة الحائرة، بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية العلوية القارة الثابتة المتنزلة من أفق الحق الأعلى الذي يعلم السر وأخفى، ألا إن القرآن لا يفر من وجه العلم، ولكنه يهفو إلى العلم ويدعو إليه يقيم بناءه عليه، فأثبتوا العلم أولاً

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (257/2-258).

ووفروا له الثقة وحققوه ثم أطلبوه في القرآن، فإنكم لا شك يومئذ واجدوه، وليس من الحكمة ولا الإنصاف في شيء أن تحاكم المعارف العليا إلى المعارف الدنيا" (1)

والذي يظهر من كلام الزرقاني رحمه الله أنه لا ينكر تفسير القرآن بالحقائق العلمية ولا ينكر أيضا إعجاز القرآن العلمي، وغاية ما في الأمر أنه ينكر ما وقع فيه بعض المفسرين والباحثين من الانحراف في هذا النوع من التفسير حتى حملوا القرآن ما لا يحتمل واتسعوا فيه حتى جعلوه هو المعنى الأصل للآية دون التثبت من الكشوف العلمية وتأكيد استقرارها.

يؤكد ذلك أن الزرقاني رحمه الله يذهب في المبحث الأول من كتابه إلى أن في القرآن إعجازاً علمياً حيث يقول:

" إن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض وبر وبحر وحيوان ونبات وخصائص وظواهر ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه معجزاً كل الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ،الخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومعارفها، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينهـــا، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها. فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]" .

ثم قال: "ولعل من الحكمة أن أسوق نموذجين من القرآن على سبيل المثال أولهما في سورة النور إذ يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣]؛ فهذا النص الكريم يتفق مع أحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحاب ومطر وبرق.

والثاني: يقول الله تعالى في سورة القيامة مبيناً ومقرراً كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣ – ٤] .

أرجو أن تقف قليلاً عند تخصيص (البنان) بالتسوية في هذا المقام، ثم تستمع بعد ذلك إلى علم تحقيق الشخصية في عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية البنان، حتى أنه لا يمكن أن تجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال وقد انتهوا من هذا إلى أن حكموا البنان في كثير من القضايا والحوادث ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]"(2).

(1) المرجع السابق (259/2).
(2) مناهل العرفان (19,18/1). بتصرف.

المبحث الثاني

آراء أشهر العلماء المؤيدين قديماً وحديثاً

أولاً: المؤيدون قديماً:

• الإمام أبو حامد الغزالي (1):

الكاتبون في هذا الموضوع يذهبون إلى أن الإمام أبا حامد الغزالي المتوفي سنة (505هـ) كان إلى عهده أكثر من استوفى بيان هذا القول وأيده، وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية (2)، مما يدل على أن هذه الفكرة كانت موجودة قبله منذ أن ترجمت العلوم إلى اللغة العربية ودونت العلوم المختلفة، بل إننا نستطيع أن نقول إن بذورها كانت موجودة في عصر صحابة رسول الله يشير إلى ذلك قول عبد الله بن مسعود ﷺ: " من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن" (3) ولكنها كانت في بدايتها (4).

إلا أن الإمام الغزالي يعتبر أول من أثار هذا الموضوع في الأوساط العلمية، ولذلك نجده في كتابه (إحياء علوم الدين) يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن (في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل) يقول فيه:

"والأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم، قال علي ﷺ: "إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن" (5) فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ ، وقال ﷺ (إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً) (6) ويقول ابن مسعود ﷺ : "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن" (7) وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر" .

ثم يقول: "وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، وهذه العلوم لانهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظّار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها، فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره؟" .

وفي كتابه " جواهر القرآن " والذي ألفه بعد الإحياء نرى الإمام الغزالي يتوسع في الموضوع، وقد ذكر في الفصل الأول أن القرآن هو البحر المحيط، وأنه ينطوي على أصناف الجواهر

---

(1) هو محمد بن محمد أحمد الطوسي الشافعي، زين الدين حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، فقيه، أصولي حكيم، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم له تصانيف منها: إحياء علوم الدين، المستصفى في أصول الفقه، تهافت الفلاسفة، وغيرها، توفي سنة (505هـ).

انظر: وفيات الأعيان (586/10-588)، طبقات الشافعية للسبكي (191/6-289).

(2) انظر: التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم، لأمين الخولي ص (20) والتفسير والمفسرون للذهبي (474/2).

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (8666) (139/9) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (343/7): (رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح)، وراه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (30018) (126/6).

(4) انظر: التفسير العلمي لأبي حجر ص (142).

(5) رواه الشافعي في مسنده، برقم (207) ص (204)، والطحاوي في مشكل الآثار، برقم (5040) (468/12). وأصله عند البخاري في كتاب العلم، باب (كتابة العلم)، حديث رقم (111).

(6) لم أقف عليه في كتب الحديث ولا في كتب التخريج. لكن قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (232/13) :"يُرْوَى عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ مَوْقُوفًا أَوْ مُرْسَلًا " .

(7) سبق تخريجه ص (29) .

والنفائس. فيقول: " أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها؟!" (1)

وفي الفصل الرابع من نفس الكتاب والذي عنونه بقوله: (كيفية انشعاب العلوم الدينية كلها عن الأقسام العشرة المذكورة) نجده قد قسم علوم القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: علم الصدف والقشر، وجعل منه علوم اللغة والنحو والقراءات وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر، ثم رتبها قرباً وبعداً عن القشر واللباب.

القسم الثاني: علم اللباب، وهو يتضمن معرفة قصص القرآن، وما يتعلق بالأنبياء وما يتعلق بالجاحدين والأعداء، وعلم الكلام، وعلم الفقه وأصوله، والعلم بالله واليوم واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك....(2) .

ثم يعقد الفصل الخامس لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن وفيه يقول: " ولعلك تقول: إن العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك، فاعلم أننا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التي لابد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه.

أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها فلاح المعاش والمعاد، فلذلك لم نذكرها.... ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فإن جمعيها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ.

فمن أفعال الله تعالى- وهو بحر الأفعال- مثلاً الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولعل الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكامله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكمالاته وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلها بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

ولا يعلم حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر، إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 6 – ٨]، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين

(1) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني ص (23).
(2) انظر: المرجع السابق ص (35).

والآخرين، وكــذلك لا يعـرف كمـال معنـى قولـه تعـالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]. من لم يعرف التسوية والنفخ والروح ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها. ثم قال:

ولوذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها، وقد أشرنا إليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله، فتلك الجملة تشمل على هذه التفاصيل، وكذلك كل قسم أجملناه، لو شعب لا نشعب إلى تفاصيل كثيرة، فتفكر في القرآن، والتمس غرائبه، وهو البحر الذي لا شاطئ له" (1) .

ويلاحظ أن هذا المنهج الذي رسم أطره الإمام الغزالي، إنما هو منهج دقيق وصحيح إذا نظرنا إليه في ضوء الهداية القرآنية، فإن من يريد أن يفسر القرآن على أساس العلوم الكونية يجب أن يكون جامعاً لأصول العلوم الشرعية واللغة العربية على اختلاف مناحيها، بجانب إلمامه بالعلوم الكونية والتطبيقية...الخ، ليستطيع أن يبين إشراقات الهداية الربانية في القرآن الكريم وإقامة الحجة على مقاصد القرآن، فيكون سبيل هذه العلوم الكونية في تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التي تساعد على فهم النص القرآني فهماً يحقق الغرض منه (2).

- فخر الدين الرازي:

إذا كان الإمام الغزالي قد وضع الأطر لمنهج التفسير العلمي، فإن الفخر الرازي طبق ذلك عملياً في تفسيره " مفاتيح الغيب" على معارف عصره، وإن كان أغلب العلوم التي طبقها وتناولها هي علوم الفلك والهيئة، مستدلاً بذلك على وحدانية الله تعالى وقدرته وإرادته وواسع علمه، فكان تفسيره فياضاً بالاستطرادات العلمية الكونية.

وها هو ذا الإمام الرزاي يرد على من اعترض عليه بسبب إكثاره من القضايا الكونية والعلمية في تفسيره فيقول:

"وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد؟ فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته، وتقريره من وجوه:الأول: أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.

والثاني: أنه تعالى قال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]؛ فهو تعال حث على التأمل في أنه كيف بناها ولا معنى لعلم الهيئة إلا بالتأمل في أنه كيف بناها وكيف خلق كل واحد منها.

(1) جواهر القرآن للغزالي، ص (44).

(2) انظر: القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، ص (257).

والثالث: أنه تعالى قال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، فبين أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة في أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل مما في أبدان الناس، ثم أنه تعالى رغب في التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، فما كان أعلى شأناً وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب.

والرابع: أنه تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، ولو كان ذلك ممنوعاً منه لما فعل" (1) .

والحق أن الإمام الرازي قد توسع في ذكر القضايا العلمية في تفسيره، حتى أنه يخرج القارئ في بعض الأحيان عن مقاصد النص القرآني الذي يبحثه، ومع غزارة علم هذا الإمام، والثروة العلمية الهائلة التي تركها لنا في تفسيره، فإن عدداً ليس بالقليل من تلك المسائل العلمية والكونية التي أوردها في تفسيره قد أصبحت اليوم غير دقيقة بسبب الثورة العلمية والأجهزة الدقيقة، لأنه إنما استقاها مما كان في عصره من الثقافة العلمية.

وإليك مثلا تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢]، فهو يذكر أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

"الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو الاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عال كان يجب ألا يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية وذلك الإنسان هاوٍ، والأرض أثقل من الإنسان ،والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب ألا يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكن انتفاعنا بها كاملاً، لأن حركة الأرض -مثلاً- لو كانت إلى المشرك، والإنسان لا يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة" (2).

فهذا الذي ذكره الرازي من سكون الأرض وعدم حركتها قد ثبت علمياً خلافه، بل إن القرآن ذاته أشار إلى حركتها من خلال حركة بعض الظواهر فيها كظاهرة الظل في مده ونقصه (3) وغيرها (1).

---

(1) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي (278/14).

(2) المرجع السابق (233/1).

(3) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

- الإمام الزركشي رحمه الله:

ثم يأتي الإمام الزركشي في كتابه " البرهان في علوم القرآن" ليقرر إمكانية استخراج كل شيء من القرآن الكريم.

فيعقد فصلاً في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم ينقل فيه أقوال بعض الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، كما يسوق آراء الغزالي رحمه الله من كتابه " الإحياء" مدللاً بذلك على ما ذهب إليه.

يقول: "كتاب الله بحره عميق وفهمه دقيق، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية، وأجله عند مواقف الشبهات، واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، فالعبارات للعلوم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام، ولكل وصف ظاهر وباطن، وحد ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم، والحد أحكام الحلال والحرام، والمطلع أي الإشراق من الوعد والوعيد، فمن فهم هذه الملاحظة بان له بسط الموازنة وظهر له حال المعاينة......

ثم يقول: وبالجملة فالعلوم كلها داخله في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، فهذه الأمور تدل على أن فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل والسماع، لابد منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط، والغرائب التي لا تفهم إلا باستماع فنون كثيرة، ولابد من الإشارة إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أو لا، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر، ومن ادعي فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهم كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب" (2) .

ويقول في فصل آخر من كتابه " البرهان":

"إن في هذا القرآن علم الأولين والآخرين، وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهمه الله تعالى، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة [المنافقون: ١١] : ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، فإنها رأس ثلاثة وستين سورة، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده ...." (3) .

ولا شك أن الإمام الزركشي بنقله لهذه الاستنباطات وتأييده لها يكون قد أوغل في تحميل النصوص القرآنية جزئيات المسائل الحسابية والفلكية، مما أخرج القرآن عن كونه كتاب هداية ودستور حياة إلى أن يكون كتاباً حسابياً وموسوعة علمية متضمنة لجزئيات العلوم وفروعها.

- الإمام السيوطي رحمه الله (4):

[الفرقان: ٤٥ – ٤٦].

(1) انظر: ثبوت حركة الأرض علمياً في كتاب الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان ص (256-263).

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي (170/2).

(3) المرجع السابق (2/ 198) .

(4) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، إمام وحافظ مؤرخ وأديب، نشأ في القاهرة يتيماً وله نحو600 مصنف منها: الإتقان في علوم القرآن، الأرج في الفرج، والأشباه والنظائر. وغيرها، توفي سنة (911هـ- 1505م) .
انظر: الأعلام للزركلي (301/3) كشف الظنون للقسطنطيني (75/1) .

ثم يأتي هذا الإمام في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) و(معترك الأقران)، ليؤكد ما ذهب إليه من قبله من العلماء من أن القرآن الكريم يحوي علوم الأولين والآخرين، ويستدل على قوله بطائفة من الآيات والأحاديث والآثار وأقوال العلماء ليدلل على ما ذهب إليه ثم يعقب على ما أورده فيقول:

"وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة..." (1) .

ثانياً: المؤيدون حديثاً:

قبل الشروع في التعرف على أبرز العلماء المعاصرين وعلى رأيهم في هذا الصدد، يُلفت الانتباه إلى أن الهدف الأساسي الذي يسعي المؤيدون للتفسير العلمي لتحقيقه إنما هو استنباط بعض المعاني الجديدة من الآيات القرآنية على أساس العلوم الكونية لكن ضمن إطار النص القرآني، ودون جر الآيات القرآنية إلى النظريات بشكل تعسفي.

لكننا وجدنا في العصر الحديث من يحاول تفسير النصوص القرآنية تفسيراً تعسفياً قد أخرجها عن مدلولاتها اللغوية ومعنيها الشرعية، فإذا ما سمع الباحث بنظرية علمية أسرع ليجد لها في كتاب الله ما يؤكدها، ولا ضير أن يلوي أعناق الآيات ويطوعها في سبيل التوفيق بينها وبين تلك النظرية، أو يقحم النظرية اقحاماً قسرياً في نصوص القرآن.

ومن هنا كان لا بد من تقسيم المؤيدين من العلماء حديثاً إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: المؤيدون بمغالاة.

والطائفة الثانية: المؤيدون باعتدال.

---

(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (2/250-251).

الطائفة الأولى: المؤيدون بمغالاة: ومنهم:

- **الشيخ محمد عبده [1] :**

ويعتبر من رواد هذا الاتجاه في تفسير القرآن في العصر الحديث، بل من الذين أصدروا فتوى بجواز تفسير نصوص القرآن بمستجدات العصر وما يتمخض عنه من اكتشافات وابتكارات .

وإننا لنجد تأييده للتفسير العلمي واضحاً في تفسيره لجزء عمّ، وسنلحظ التجاوز الواضح، بل المغالاة وهو يفسر بعض الآيات القرآنية بما استجد في عصره من علوم ومعارف .

فها هو ذا يفسر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦] في ضوء العلم الحديث في عصره فيقول:

"أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينهما حتى تختلط وتعود بحراً واحداً، وهو بمعنى الملء فإن كل واحد منها يمتلئ حتى يفيض ويختلط بالآخر، وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال الأرض، وانفصال الجبال، ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى في سورة [الانفطار: ٣] ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ، وقد يكون تسجيرها إضرامها، فإن ما في بطن الأرض من النار إذ ذاك يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار إلا النار.

إلى أن يقول: ولكن البحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال الأطراف كما وقع في (جاوا) من عدة سنوات، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيه ظهوراً لا شبهة تطرأ على الذهن بعده" (2) .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]، يقول: انشقاق السماء مثل انفطارها... وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم، كان يمر كوكب في سيره بالقرب من الآخر فيتجاذبا فيتصادما، فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث في ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره" (3) .

ولقد واجه محمد عبده من بعض العلماء انتقاداً في هذا التفسير لخراب العالم، لأن الكون أعظم من أن يختل نظامه بمجرد ضرب كوكب بأخر من المجموعات الشمسية والتي يتجاوز عددها ما عرفه البشر من حساب، فالأولى في مثل ذلك أن يفوض الأمر فيه إلى الله تعالى فهو علام الغيوب (4).

---

(1) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، تعلم في الأزهر وتصوف وتفلسف، أصدر جريدة العروة الوثقى، وتولى منصب القضاء في مصر ثم صار مفتياً للديار المصرية سنة (1317هـ) واستمر إلى أن توفي بالقاهرة سنة (1323هـ) له رسالة التوحيد، وتفسير القرآن الكريم والفلسفة والتصوف، وغيرها. انظر الأعلام للزركلي (252/6).

(2) تفسير جزء عم ، محمد عبده، ص (30).

(3) المرجع السابق، ص (35).

(4) انظر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان لأبي حجر، ص (167).

ولعل أكثر ما يبين عن تفسيره العلمي المتعسف تفسيره لسورة الفيل فبعد أن أجمل معنى آياتها قال:

"وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات ولا نزيد عليه أدنى تفصيل، هو كاف في الاعتبار والعظة... لكن في اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة..."

ثم ذكر روايات في ذلك واستطرد قائلاً:

"وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض....... وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه بالميكروب لا يخرج عنها، هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله بتأويل إن صحت روايته" (1) .

وهكذا تجد في تفسير هذه السورة التعسف واضحاً فما الذي سوغ للإمام محمد عبده أن يقحم الميكروب في تفسير السورة والجدري والحصبة مع أن اللغة العربية ليس فيها ما يسوغ أن نطلق على لفظة الطير تلك التفسيرات، وليته وقف عند حد التفسير بهذا، بل لفرط حماسه جزم بصحة تفسيره وإبطال ما عداه.

وهذا كما هو واضح تحميل للنص القرآني ما لا يحتمل ابداً، وقد أكثر العلماء في الرد عليه مما لا يتسع المقام لذكره (2).

- الشيخ طنطاوي جوهري.

كان من الذين آمنوا بأن القرآن لا يفسر إلا بالعلم الحديث، فألف تفسيراً للقرآن سماه "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" يقع في (25) جزءاً، مزج فيه -كما قال- الآيات القرآنية بالعجائب الكونية (3).

ومن يقرأ تفسيره مثلاً لسورة الفاتحة سيرى أنه ذكر فيها من العلوم ما لا تحتمله حتى أنه استشعر ذلك من نفسه وأخذ في الجواب:

يقول: " لعلك تقول مالي أراك تحمل الفاتحة وتدخل فيها من العلوم مالا يعقل، مع أن الناس يقرؤونها ولا يلحظون ما تذكر، ويكررونها صباحاً ومساءً ولا يتهيأ لهم ما تصنع وإنما تفعل هذا استطراداً لا استنباطاً، وتطويلاً لا تأويلاً، وتعليماً لا تفسيراً وإكثاراً لا استخراجاً.......

ثم يجيب وخلاصة قوله: أنه ليس من الضروري أن يكون كل قارئ يلحظ ذلك وما يعقلها إلا العالمون" (4) .

ولا ريب أن جوابه هذا غير معتد به، لأن القرآن في الأصل كتاب هداية وإرشاد. لا موسوعة علمية لكل العلوم، ثم إيراده لكل ما جاء من نظريات علمية حديثة ومحاولة استخراج ذلك من القرآن، واستشهاده بكلام علماء الغرب، ووضعه لصور الحيوانات والنباتات ومناظر الطبيعة

---

(1) تفسير جزء عم محمد عبده، ص (162) .
(2) انظر: هذه الردود في كتاب التفسير العلمي لأبي حجر ص (169-171).
(3) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (505/2) واتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير ص (55).
(4) تفسير الجواهر لطنطاوي (100/1).

والتجارب العلمية والجداول الإحصائية، ونقله عن التوراة والإنجيل المحرفان ورده على النصاري والمستشرقين، وتوسعه في فنون العصر وعلومه (1).

كل ذلك جعل كتابه يخرج من مسمى التفسير إلى أن يكون موسوعة علمية لا علاقة لها بالقرآن، ولأجل ما سبق تعرض لنقد العلماء حتى اعتبروه أكثر من تجرأ وتعسف في تفسير القرآن.

ومن هؤلاء المنتقدين محمد رشيد رضا رحمه الله - وإن لم يصرح باسمه- حيث قال: "وقلده- أي الفخر الرازي- بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلاً بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن" (2) .

كما انتقده الشيخ د/ محمد حسين الذهبي قائلاً: ونجده يضع لنا في تفسيره كثيراً من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم، وبقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحاً يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس، ولقد أفرط في ذلك، وجاز حد المجاز.

ومما يؤخذ عليه: أنه قد يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم، وهو حين ينقلها يبدي رضاه عنها وتصديقه بها، في حين أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ .

هذا وإنا لنجد المؤلف يفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة لم يكن للعرب عهد بها من قبل، وهذا ضرب من التكلف ارتكبه المؤلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله (3).

وبهذا يظهر أن تفسير الجواهر موسوعة ضربت في كل فن بسهم وافر حتى صار فيه كل شيء إلا التفسير، وإن المانعين لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه بل ولوعه الشديد بإخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تتحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية. وهذا تعسف ظاهر وميل بالقرآن عن مقصده الأسمى وهو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة (4). وممن أوغل في التفسير العلمي كذلك مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم والشيخ أبو زيد الدمنهوري في كتابه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن) والأستاذ عبد الودود يوسف في تفسيره: (تفسير المؤمنين) وقد رد عليهم الشيخ خالد العك وبين انحرافاتهم في التفسير في كتابه: أصول التفسير وقواعده (5)، كما ألف د/ عبد المتعال الجبري كتاباً اسمه: (شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم) وتعرض لنقدهم سامي الموصولي في كتابه (الإعجاز العلمي في القرآن تأصيل فكري) (6) .

الطائفة الثانية: المؤيدون باعتدال: ومنهم:

- وحيد الدين خان (7):

---

(1) انظر: انحرافاته في التفسير في كتاب التفسير والمفسرون (508/2) وأصول التفسير وقواعده، د/خالد عبد الرحمن العك ص (253).

(2) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا (7/1).

(3) التفسير والمفسرون للذهبي (509/2) بتصرف.

(4) اتجاهات التفسير في العصر الحديث، عبد المجيد المحتسب، ص (277).

(5) انظر: ص (253) وما بعدها.

(6) انظر: ص (34-35).

(7) وحيد الدين خان من كبار علماء الهند ومفكريها في العصر الحديث، ومن الذين يتولون قضية الإسلام إمام الزحف الفكري

عقد وحيد الدين خان في كتابه " الإسلام يتحدى" مبحثاً بعنوان: القرآن والكشوف الحديثة، تحدث فيه عن قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ووضع بعض الضوابط لهذا النمط من التفسير، والتي تدل على اعتدال الرجل واتزانه إزاء هذه القضية، ثم ساق طائفة من الآيات القرآنية وفسرها بناء على معطيات الحقائق العلمية، وبمنهج دقيق لا إفراط فيه ولا تفريط.

وها هو ذا يبين أهم قيد من القيود التي يرتكز عليها هذا التفسير فيقول: " إن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف العلمية الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع، ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا يضير مطلقاً صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن، وإنني لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة" (1) .

ويبدأ بضرب بعض الأمثلة على الإعجاز العلمي في القرآن فيقول:" ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء في سورتين هما الفرقان والرحمن، وجاء في السورة الأولى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وأما الاية التي وردت في السورة الأخرى فهي تقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ – ٢٠].

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد، فإن أحدهما لا يدخل أي لا يذوب في الآخر، وهناك على سبيل المثال، نهران يسيران في "تشاتغام"، بباكستان الشرقية إلى مدنية "أركان" في "بورما" ويمكن مشاهدة النهرين، مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما حداً فاصلاً، والماء عذب في جانب وملح في جانب آخر، وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث المد البحري ولكنهما لا يختلطان، ويبقي الماء عذباً تحت الماء الأجاج....... إن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الإنسان قديماً....... ولكنا لم نكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين، فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة، يسمى بقانون (المط السطحي) وهو يفصل بين السائلين، لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل إلى آخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله، وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهد الحديثة . ونستطيع

الفكري المعادي، له مؤلفات منها: الإسلام يتحدى، والدين، وغيرها. انظر: مقدمة د/ عبد الصبور شاهين لكتابه الإسلام يتحدي.

(1) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان ص (141).

بكل ثقة أن نقول إن المراد بالبرزخ هنا إنما هو المط أو التمدد السطحي الذي يوجد في المائين والذي يفصل أحدهما عن الآخر" (1).

وبعد ذلك نراه يستعرض عدداً من الأمثلة في عدة جوانب من العلوم مقارناً ذلك مع ما ورد في كتاب الله تعالى ثم يقول: "السنا نملك أمام هذا التوفيق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد وما اكتشف بالأمس القريب، إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي والحال والمستقبل على السواء" (2) .

- **الشيخ مُحَّد مصطفى المراغي** [3] :

كان ممن يعنى في تفسيره باختيار الآيات التي تظهر للناس أن القرآن لا يقف في سبيل العلم، بل يطلق للعقل العنان حتى يهتدي إلى عظمة الله في كونه، ويدقق على أهمية تلاقح المعرفة، بحيث يستند المفسر لكتاب الله في قضايا العلم على المختصين في العلوم الكونية والطبيعية، ليكون لكلامه وزنه ومصداقيته، وليواكب علوم العصرية ومستجداتها.

يقول المراغي رحمه الله في مقدمه تفسيره: " وقد سلكنا في الوصول إلى فهم الآيات التي أشارات إلى بعض نظريات في مختلف الفنون استطلاع آراء العارفين بها، فاستطلعنا آراء الطبيب النطاسي [4] والفلكي العارف، والمؤرخ الثبت، الحكيم البصير ليدلي كل برأيه فيها تمهر فيه، لنعلم ما أثبته العلم وأنتجه الفكر ليكون كلامنا معتزاً بكرامة المعرفة التي تَشْرُف بتفهم كتاب الله، فرجل الدين حامل لوائها عليه أن يسأل العلم دائماً ؛يستبصر بما ثبت لديه، ويساير عصره ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن قعدت به همته إلى الموروث من قضاياه لدى الماضين ركب شططاً وازداد بعداً عن الحقيقة، وتضاءل أمام قارئ بحوثه ومؤلفاته" [5] .

وفي تقريظ له لكتاب (الإسلام والطب الحديث) للطبيب عبد العزيز إسماعيل نجده بين المنهج الصحيح إزاء قضية التفسير العلمي فيقول : "لست أريد من هذا - الثناء على الكتاب ومؤلفه - أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول: إن الكتاب أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته والعمل به ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه" [6] .

كما كان الشيخ يكره تطويع القرآن للنظريات العلمية، ويرى أن في ذلك خطراً عظيماً على كتاب الله وفي ذلك يقول، تحت عنوان " غرور المسلمين بالعقل والفلسفة": " وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن

---

(1) انظر: الإسلام يتحدى ص (142-143) بتصرف.

(2) المرجع السابق ص(151).

(3) مُحَّد مصطفى المراغي، إمام المسلمين في عصره، وحامل لواء الإصلاح الأزهري، تشريعاً وتنفيذاً ومراجعة، ولقد تولى القضاء في مصر والسودان، ثم انتهى به الأمر شيخاً للأزهر، وكان له دروس يحضرها كبار القوم والعلماء والطلاب من أهمها دروسه في التفسير والتي كان يلقيها في شهر رمضان ولم يترك تفسيراً كاملاً، كما وفق رحمه الله في خطبه المنبرية يوم الجمعة إذا كانت موضع العجب والإعجاب توفي سنة (1945م). انظر: النهضة الإسلامية لبيومي (429-413/1).

(4) النطّاسي: العالم، وكذا النّطيس. انظر: مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (نطس) ص (996).

(5) تفسير المراغي، مُحَّد مصطفى المراغي (18/1).

(6) الإسلام والطب الحديث، د/عبد العزيز إسماعيل تقديم: مُحَّد مصطفى المراغي، المقدمة.

ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على كتاب الله، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات العلمية التي لم تستقر بعد لا يصح أن يُرَد إليها كتاب الله" (1) .

ومع ذلك نجد أن الشيخ المراغي لا يرى بأساً في تفسير الآية بالحقائق العلمية لا النظريات متى حصل توافق بينهما وبين الآية الكريمة فيقول : "يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها به" (2) .

ومن هنا فإنه كان يجب أن يكون المفسر ملماً بما يقدر عليه من مسائل العلوم الكونية فيقول: "ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ومادته وأبعاده وأقداره وأوزانه ،لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار" (3) .

وإذا ما أردنا أن نتبين التطبيق العملي لهذا المنهج المعتدل فلنستعرض مثالاً من الأمثلة التي أوردها في تفسيره يوضح كيف وازن بين آيات القرآن الكريم وبين مستجدات العلم.

ففي تفسيره لقوله الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾ [الرعد: ٣] يقول: " ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام، ويتلقب عليها الحيوان، وينفع الناس بخيراتها وزرعها وضرعها... ولا شك أن الأرض لعظم سطحها هي في رأي العين كذلك، وهذا لا يمنع كرويتها التي قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك، ولم يبق لديهم فيها ريب........

ثم يقول: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾ ، أي وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكراً أو أنثى حين تكونها، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحبَّ إلا من اثنين ذكر وأنثى، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث في شجرة واحدة كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو التذكير في شجرة وعضو التأنيث في شجرة أخرى كالنخل، ما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة كالقطن، وإما أن يكون كل منهما في زهرة كالقرع مثلاً " (4) .

- د/ محمد عبد الله دراز (5) :

---

(1) الدروس الدينية للشيخ المراغي سنة (1365هـ) كتاب الهلال عدد (238) سنة (1970م) ص (42) بواسطة كتاب التفسير العلمي لأبي حجر ص (224) .

(2) انظر: تقديم الشيخ المراغي لكتاب الإسلام والطب الحديث ، المقدمة ص (ذ) .

(3) الدروس الدينية للشيخ المراغي ص (62).

(4) تفسير المراغي (66/31).

(5) د/ محمد عبد الله دراز، من علماء الأزهر درس الفلسفة والأخلاق وعلم الاجتماع و علم مقارنة الأديان في القاهرة ثم اختير أستاذ للتفسير في الأزهر اهتم بالقرآن وعلومه وقد كانت رسالته للدكتوراه بعنوان (دستور الأخلاق في القرآن)، له مؤلفات عدة: أهمها (النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن) و(الصوم تربية وجهاد) وغيرها، توفي في باكستان سنة (1958م).

انظر: النهضة الإسلامية للبيومي (256-239/2).

بالرجوع إلى ما كتبه د/ محمد عبد الله دراز رحمه الله في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم) نجده لا يرى مانعاً من التفسير العلمي ما دام ذلك بعيداً عن المبالغات ؛ فتحت عنوان "حقائق علمية" كتب يقول:

"ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة لا لغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير.

ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث.

1- مثل المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٦ – ٧] .

2- والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: ٥] .

3- وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر: ٦].

4- والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] "[1].

وبعد استشهاده رحمه الله بهذه الآيات وغيرها على موافقة الحقائق القرآنية للحقائق العلمية ذكر أنه عند اختياره لهذه الآيات فيما تقدم حرص على تلافي ما يعاب به على الطريقة التوضيحية المعروفة (بالتأويل) والتي تتلخص في تفسير آيات القرآن بحيث تتفق نتائج التفسير مع النتائج العلمية المقررة.

ثم نجده يعيب على بعض المفسرين المعاصرين سلوك هذا المنهج فيقول: " ولكن الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن بحيث أصبحت خطراً على الإيمان ذاته، لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه مالا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن نعول أكثر مما يجب على آراء العلماء، وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التحقق من صحتها.

وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث نرى أن من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أنا نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطيئة.

والقرآن ذاته يدعونا إلى البحث والكشف عن مصدره الرباني، وذلك بتدبره وبتأمل آيات الخالق التي أودعها في الكون وفي أنفسنا لنصل إلى الدليل القاطع على صدقها المطلق ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

---

[1] مدخل إلى القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ص (176).

ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] . ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] ".

ثم يشيد بمنهجه المتوازن عند استشهاده بالآيات المتقدمة فيقول: "ولكن الأمثلة السابقة هذه لا تتطلب تفسيراً ولا تأويلاً، وإنما تتضمن تطابقاً عجيباً بين التوضيح القرآني ذاته وبين التوضيح العلمي الذي ثبت بعد بحوث طويلة خلال العصور والأجيال التي انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها بفضل إسهام رجال متخصصين كل في فرعه المحدود" .

ويختم ذلك بأن النبي ﷺ وهو الأمي والذي لا يملك إلا مشاهداته المحدودة وعلمه القاصر لا يمكن أن يأتي بكل ما اشتمل عليه الكتاب من حلول في الأخلاق والتشريع ومن علوم كونية ونفسية تتطلب إمكانيات فنية وتجارب جماعية متكاملة مما يؤكد أن القرآن من عند الله تعالى ومعجزته للخلق إلى قيام الساعة (1).

- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (2):

بالرجوع إلى تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) يتضح لنا منهجه رحمه الله من الإعجاز العلمي:

فقد قال في المقدمة العاشرة في تفسيره عند البحث عن إعجاز القرآن ما نصه:

"وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئاً فشيئا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلم. وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به (أمي) في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم. ولقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى في سورة [القصص: 49-50] ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ "(3).

وفي المقدمة الرابعة قال: "إن غرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف على فهمه أكمل الفهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعاً، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل ثم انتهى في قوله إلى أن للمفسرين ثلاثة طرائق:

---

(1) انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص (177,176).

(2) هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، علم من أعلام العصر، وركن من أركان الحركة الإصلاحية، وإمام مجتهد في علوم كثيرة كالتفسير والحديث والفقه، ورئيس للمفتين بتونس، شيخ جامع الزيتونة وفروعه، ومن أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، والتحرير والتنوير، والوقف وآثاره في الإسلام وغيرها، توفي سنة (1393هـ).
انظر: الأعلام (174/6) شيخ الجامع الأعظم، بلقاسم الغالي ص (35-71).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور محمد الطاهر (106/1).

1- إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه،وهذا هو الأصل.

2- وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن.

3- وإما جلب المسائل وبسطها: إما لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصده من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه، لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع" (1) .

ثم قال: " في الطريقة الثالثة: تجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية، إما على أن بعضها يومئ إليه معنى الآية ولو بتلويح ما ؛كما يفسر أحد قوله تعالى ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مدخلاً ذلك تحت قوله ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾... الخ، ذلك من الأمثلة، وإما على وجه التوفيق بيت المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، أن فناء العالم يكون بالزلازل...

وشروط كون ذلك مقبولاً أن يسلك فيه مسلك الإيجاز، فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم، ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له...." (2) .

ثم قال: " للعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال – آراء:

فإما جماعة منهم خيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية، ويرون القرآن مشيراً إلى كثير منها ومن هؤلاء ابن رشد الحفيد والغزالي والرازي وأمثالهم، وصنيعهم يقتضي التبسيط وتوفيق المسائل العلمية، فقد ملأوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكمية وغيرها.... ولا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب سبحانه وتعالى لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة، ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكانت الآية لها تعلق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه إفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه، وذلك يختلف باختلاف المقامات، ويبنى على توفر الفهم ثم وضع الشروط التي يراها لازمة لذلك فقال:

وشرطه ألا يخرج عما وضع له لفظ العربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفاً بيناً، ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية" (3) .

وفي المقدمة العاشرة والتي تحدث فيها عن (إعجاز القرآن) يذهب إلى أن وجوه الإعجاز في القرآن راجعة إلى ثلاثة جهات:

---

(1) التحرير والتنوير (42/1).
(2) المرجع السابق (43/1).
(3) التحرير والتنوير (44/1-45).

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لايفيده أصل وضع اللغة.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، ممالم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة.

ثم يقول: " إن إعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه قد تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ.

والقرآن معجزة من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على مر العصور لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك.

كما أن هذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر، إذ لا قبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وإعجازه لعامة الناس أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أمياً في قوم أميين" (1) .

من هذه النصوص التي تقدمت يتضح أن ابن عاشور من العلماء الذين لا يعارضون الاستفادة مما أثبته العلم في تفسير كلام الله وإيضاحه ما دام ملتزماً المفسر بالشروط المذكورة سابقاً .

بل إن هذه الحقائق العلمية هي أحد أوجه إعجاز القرآن الحاصلة بمجموعه وغير حاصل به التحدي إلا إشارة.

ومن هنا نراه يورد رأي العلماء المانعين للتفسير العلمي كالشاطبي رحمه الله ويرد عليه بما سبق وبغيره، ويورد رأي علماء الهيئة وقد يعترض عليهم ويرد قولهم.

مما يؤكد اعتدال ابن عاشور رحمه الله في تفسيره القرآن بما أثبته العلم الحديث من حقائق.

---

(1) التحرير والتنوير (1/ 104، 129) .

الفصل الثاني

أدلة المعارضين والمؤيدين

المبحث الأول: أدلة المعارضين للإعجاز العلمي

استدل المعارضون للإعجاز العلمي والتفسير العلمي بعدد من الأدلة (1) منها:

1- أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وليس كتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

2- أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعارضين ؛لأن عملية التوفيق تفترض غالباً محاولة الجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عداء، أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء.

3- أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني ؛لأنه حس بالضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة، فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلاً غير مشروع.

4- أن ما يكشف من علوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائماً للتغير والتبديل والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق الشرعية النهائية بمثل تلك النظريات حتى لا يقف المفسر محرجاً عند ثبوت بطلان تلك النظرية، وحتى لا يحدث صراع بين الدين والعلم.

5- أن إعجاز القرآن ثابت بوجهه البياني، وهو غني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف الذي قد يذهب بإعجاز القرآن ولا يسيغه الذوق السليم.

6- أن الدعوة القرآنية إلى النظر في الكون والعلوم هي دعوة عامة إلى موضع العظة والتفكر وليست بدعوة إلى بيان دقائقها وكشف علومها.

7- أن الفهم الدقيق للألفاظ يحتم علينا فهمها في حدود الاستعمال الذي نزلت فيه، وهذا يحول بيننا وبين التوسع في جعلها تدل على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن.

8- لابد في فهم كتاب الله من الوقوف به عند حدود ما فهمه العرب الخلص، ولا يتجاوز ما ألفوه في علومهم وأدركوه من معارفهم، لأن القرآن عربي والشريعة أمية.

9- أن التفسير العلمي بدعة حمقاء ودفاع فاسد عن إعجاز القرآن من كل وجه، فلم يرد عن رسول الله ولا أصحابه ولا التابعين أنهم فسروا القرآن بشيء من تلك العلوم الكونية.

ويمكن الجواب على ما سبق من حجج بالآتي:

1- إن القرآن الكريم وإن نزل للعرب لكنه لم ينزل لهم وحدهم وإنما للناس جميعاً قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] . وقال ﷺ: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود" (2)، والنصوص في ذلك كثيرة، فالقرآن الكريم والشريعة إذن لا ينبغي أن نضيق دائرتها

---

(1) انظر: اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، د/ عفت الشرقاوي ص (373) وما بعدها، دراسات في القرآن الكريم د/ فهد الرومي ص (320-321)، والتفسير العلمي لأبي حجر ص (110- 112)، الإعجاز العلمي في القرآن لسامي موصلي ص (21-22)، وأقوال المعاضين في هذا البحث .

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التميم، باب (فلم تجدوا ماء فتيمموا....)، حديث رقم (328).

لنحصرها في العرب وحدهم (1) ، فإذا كان العربي أعجز ببلاغة القرآن فإن غير العربي سيعجزه ما ذكر في القرآن من المعاني التشريعية والحقائق العلمية (2).

2- إن نزول القرآن بلغة العرب وما تحتويه من أساليب جعل القرآن صالحاً لمخاطبة الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وتباعد أزمنتهم ومع تطور علمهم واكتشافاتهم.

يقول البوطي في كتابه " روائع القرآن" :

" لو أننا أخذنا آية من كتاب الله تتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول ثم قرأناها على مسامع خليط من الناس متفاوت في المدارك والثقافة فنجد أن الآية تعطي كلاً منهم معناها بقدر ما يفهم، وأن كلاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه، وليس معنى أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين بل هو معنى واحد، ولكن سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنها جميعاً أسلوب الآية -وضرب لذلك أكثر من مثال- فقال من هذا القبيل قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٦١]، فهذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون.

فالآية تحمل بصيغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى، فتعطي كلاً حسب طاقته وفهمه.

فالعامي من العرب يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض وإنما غاير في التعبير تنويعاً للفظ. والمتأمل من علماء العربية يدرك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية. أما الباحث المتخصص في شؤون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالنسبة له، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتها وصياغتها.

فالآية بأسلوب وصياغتها تخاطب الناس بما يدركونه منها كلاً على حسب استعداده وطاقته الفكرية، وبذلك تكون خطاباً مفيداً لكل الناس" (3) .

3- ليس كون الأمة أمية أنها ستبقى كذلك، فلقدم أكرم الله الإنسانية بهذا الدين وبهذا الكتاب الخالد، وبهذا النبي العظيم عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولتسعد الإنسانية وتصعد وتنهض بأعباء هذه الرسالة الخالدة، فينقطع دابر الجهل، ونصل إلى أسرار الكون سخره الله لنا، فليس من المنطق إذن أن تظل الأمة أمية (4)، ثم أن الواقع يشهد إن غير الأميين دخلوا في الإسلام وأثروا المسلمين بعلومهم ومعارفهم فهل يقبل أن تبقى الأمة أمية والشريعة كذلك أمية ؟! .

4- ثم إن دعوى أن التفسير العلمي لم يتكلم فيه الصحابة ﷺ ولا التابعين رحمهم الله، ولذلك لا يجوز القول به، إذ القول به انتقاص من قدرهم، وطعن في علمهم، هي دعوى مردودة تردها نصوص هذا الدين الحنيف قال تعالى﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

---

(1) انظر: إعجاز القرآن الكريم، أ.د/ فضل حسن عباس ص (256).

(2) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ص (129).

(3) من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، ص (136) .

(4) انظر: تعليق الشيخ دراز على الموافقات للشاطبي (73/2) .

[ص: ٢٩]، فالله تعالى أوجب على المسلمين أن يتدبروا كتاب ربهم، ولذا لم يفسر رسول الله ﷺ إلا آيات قليلة، ليتمكن المسلمون من العيش دائماً على مائدته، ولو وجب علينا أن نقف بالقرآن حيث وقف الصحابة، لم يكن هناك معنى للتدبر والتفكر في كتاب الله وفي ملكوته، ولا يعني هذا أن نترك ما جاء عن الصحابة ﷺ أو أن نقدم رأينا على رأيهم بل نهتدي بما وصلوا إليه دون أن نحرم أنفسنا مما فتح الله به علينا من حقائق يؤيدها العلم والدين.

يقول ابن عاشور رحمه الله: " إن عدم تكلم السلف عليها: إن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا، وفصلوا، وفرعوا في علوم عنوا بها ولا يمنعنا ذلك أن نقضي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية، أو لبيان سعة العلوم الإسلامية..." (1) .

5- إن القرآن الكريم ذاته يصرح بأن قسماً من حقائقه ستظهر بعد زمن التنزيل قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩] ، والمراد لم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب... والمعنى: أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى، ومن جهة الأخبار بالغيب وهم فاجأوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا في معناه، أو ينظروا وقوع ما أخبربه من الأمور المستقبلة"(2).

ويقول عزوجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] .

يقول ابن كثير في تفسيرها: " أي سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله عزوجل على رسوله ﷺ بدلائل خارجية. ﴿ٱلْءَافَاقِ﴾ ، من الفتوحات، وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان... ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى"(3).

فابن كثير رحمه الله صرح بأن هذه الآية تشير إلى بعض الحقائق التي يدرسها علم الأحياء وعلم التشريح.

6- إن مقاصد الشريعة راجعة إلى عموم رسالته وهو معجزة باقية، فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام البشر في كل زمان ومكان، وبخاصة في عصور انتشار العلوم في الأمة (4).

---

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور (45/1).
(2) روح المعني، لأبي الفضل محمود الألوسي، صححه: محمد حسين العرب، (175/7).
(3) القرآن العظيم لابن كثير (187/7).
(4) التحرير والتنوير لابن عاشور (44/1).

7- إن علماء من سلف هذه الأمة قالوا: لا تنقضي عجائبه، ولو وقفنا به عند حد علوم العرب لانقضت عجائبه بانحصار جميع معانيه (1).

8- إن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء -وهم العرب- لا يقتضي إلا أن يكون المعنى الأصل مفهوماً لديهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام ويحجب عنه آخرون (2).

10- إما أن التفسير العلمي فيه تكلف في فهم كتاب الله وتحميل ما لا تحتمل فهذا أمر قد يقع فيه المفسر، لكن متى التزم الاعتدال في تفسيره والتزم الشروط والضوابط الموضوعة له، فلن يكون هناك انحراف في فهم كتاب الله أو تحميل له ما لا يحتمل، ثم متى أخطأ المفسر فهذا راجع إليه لا إلى الآية، فالآية تبقى صحيحة مهما أخطأ المجتهدون في تفسيرها.

10- ثم ما قيل بأن القرآن كتاب هداية فهذا مسلم به، وأحد أوجه هدايته الإعجاز العلمي، فقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية تقوم على النظر في الكون والأنفس (3).

---

(1) المرجع السابق (44/1).

(2) المرجع السابق (45/1).

(3) انظر: تفسير الآيات الكونية، د/ عبد الله شحاته ص (22).

المبحث الثاني
أدلة المؤيدين للإعجاز العلمي

استدل المؤيدون لهذا الاتجاه بأدلة كثيرة نذكر منها:

1- الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات:

كقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله عز شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكر والتدبر في خلق الله عزوجل.

2- الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار:

كحديث أن رسول ﷺ قال: (إنها ستكون فتنة) فقلت: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد} من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور) (1)، وكقول ابن مسعود ﷺ: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن" (2).

3- استدلوا بالمعقول ومن ذلك:

أ – أن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الصور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها (3).

ب- أن العلم الحديث قد يكون ضرورياً لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهماً دقيقاً متوقفاً على تقدم بعض العلوم فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى، فيتعين أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية، وتلك من هداية القرآن للعباد (4).

---

(1) رواه الترمذي في فضائل القرآن، وحديث رقم (2906) (172/5) وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول في الحارث مقال، ورواه ابن شيبة في مسنده برقم (30007) (125/6) وقال: لا نعلمه يروي إلا عن علي، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (2138).

(2) سبق تخريجه، ص (29).

(3) انظر: تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب) (278/14).

(4) انظر: دراسات في القرآن الكريم، أ/ د فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص (323). قلت: وما ذهب إليه د/ فهد هنا من اعتباره التفسير العلمي = =مرجحاً بين معاني الآية فيه نظر لكونه مخالفاً لما استقر عند أهل العلم قديماً من قواعد الترجيح في التفسير والله أعلم.

ج- أن الإعجاز العلمي يعجز الملحدون عن أن يجدوا فيه موضعاً للتشكيك، فإن الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن لابد أن تقيم عند كل ذي عقل دليلاً محسوساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن (1).

د- أن القرآن هو معجزة الله لخلقه، وهو حجته على عباده، وهو الكتاب المنزل للإنسانية جمعاء، ولذا لا بد أن يتضح إعجازه لكل إنسان ولو كان أعجمياً لتلزمه الحجة إن هو امتنع عن الإسلام.

ومن هنا فإن الإعجاز البلاغي إن كان أقام الحجة على العرب، فإن الإعجاز العلمي يقيم الحجة على غير العرب من هذه الإنسانية، خاصة ونحن في عصر العلم (2).

هـ- تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من الإعجاز العلمي خاصة في مجال الدعوة إلى الله منها:

1- زيادة الإيمان بعظمة الله عزوجل وعظيم سلطانه وقدرته في النفوس، بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن، وهكذا فإنها خير دعوة للتمسك بكتاب الله والاهتداء به (3).

2- الرد العلمي الدامغ على الأفكار التي تشكك في صحة الرسالة المحمدية، حيث إن عرض تلك الحقائق التي أخبر عنها نبي أمي في زمن يعمه الجهل بالعلوم البحتة، خاصة في تلك الميادين الكونية، ولذلك فهذا الإعجاز يعتبر مجالاً خصباً لاقناع المنصفين من العلماء بربانية القرآن العظيم، وصدق رسوله الكريم ﷺ (4).

3- الرد العلمي المقترن بالبرهان الساطع على أن هذا الدين هو دين العلم حقاً، فمع إشادة هذا الدين في كثير من نصوصه بالعلم وأهله، قد ذكر كثيراً من الحقائق العلمية، وأشار إلى كثير من الأسرار الكونية، ومع ذلك لم يظهر إلى الآن تعارض بين ما ذكره القرآن وما جاء به العلم من الحقائق وأنى يكون ذلك والقرآن كلام الله والكون خلقه ؟!

4- أن الإعجاز العلمي يعتبر خير محرض لهمم المسلمين كي يتابعوا مسيرة البحث والتجريب والمقارنة وغير ذلك من وسائل الكشوف العلمية والتقدم المعرفي وفي الوقت نفسه يفضي إلى توسيع دائرة شواهد الإعجاز العلمي (5)

5- أن الإعجاز العلمي دافع للمسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العمل في العالم ووضعه في مكانه الصحيح طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصدقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام، وشاهداً بتعريف غيره من الأديان (6) .

6- لا ينبغي للداعية إلى الله أو مفسر القرآن أن يكون بمعزل عن العلم أو أن يقف به على ما جاء عند السلف رحمهم الله، ولو فعل ذلك لأضر بالإسلام ضرراً بالغاً أو لحرمه من خير كثير وهو

---

(1) انظر: التفسير العلمي في الميزان لأبي حجر ص (107)، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للمصلح والصاوي ص (35).

(2) انظر: الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد الغمراوي ، ص (222).

(3) مناهل العرفان، للزرقاني، (2/568-569).

(4) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للمصلح والصاوي ص (35)، المعجزة العلمية للزنداني ضمن كتاب تأصيل الإعجاز ص(43).

(5) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص (35).

(6) انظر: المعجزة العلمية للزنداني ضمن كتاب تأصيل الإعجاز ص (44-45) .

بذلك يتيح لأعداء الإسلام أن يزعموا أن القرآن يخالف العلم أو يقف حائلاً دون تقدمه وتلك فرية بلا مرية (1).

هذه هي أدلة المؤيدين والمعارضين، ومن خلال ما ثار بين الفرقين من مد وجزر، وأخذ ورد، ونفي وإثبات، يتضح لنا أن الجميع يريد أن يثبت أن القرآن الكريم كلام الله المنزه عن التناقض، وأنه منزل من عند الله سبحانه .

- الرأي الراجح:

لا شك أن المؤيدين بمغالاة والمعارضين كل منهم قد جانب الصواب فيما ذهب إليه، والقول الحق في ذلك هو الرأي المعتدل الذي لا يتجاهل الحقائق العلمية في كتاب الله، وفي الوقت نفسه لا يلتمس لكل مسألة علمية آية من كتاب الله تؤيدها.

وهذا هو المذهب الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، فما دام القرآن كلام الله والكون خلق الله فلا بد من أن تنجسم آيات القرآن مع حقائق العلم التي ثبتت.

وقد قال الشيخ المراغي رحمه الله كلمة قيمة في هذا الموضوع:

"يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها به" (2) .

من كل ما سبق فإن التفسير العلمي إذا توفر له المناخ الصالح، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبداً بل قد يكون ضرورة في عصر العلم التجريبي، ومن هنا سعى العلماء المؤيدون لهذا الاتجاه باعتدال إلى وضع ضوابط وشروط (3) له منها:

1- مراعاة شروط التفسير العامة لكل تفسير والمقرة من قبل علماء التفسير (4).

2- اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى وليس كتاب علوم وكونيات، ولذا فإن التوسع في هذا الباب والتكلف فيه كما هو حاصل من كثير من الباحثين فليس من طبيعة هذا القرآن، ولا من طبيعة هذا الدين.

3- ترك الإفراط والتفريط لدى النظر في الآيات العلمية الكونية.

4- الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهاً مقبولة في التأويل.

5- الاعتماد على الحقائق العلمية لا النظريات ولا الفروض التي لم تثبت، واليقين بعدم التصادم بين الحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية.

6- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة، وإنما إبقاء تلك الدلالة مفتوحة، تحتمل كل ما يتفق مع معناها.

---

(1) انظر: التفسير العلمي لأبي حجر ص (109).

(2) انظر: تقديم الشيخ المراغي لكتاب الإسلام والطب ص (د) .

(3) انظر هذه الضوابط والشروط في كتاب الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد الغمراوي ص(223-230)، مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم ، ص (171-176)، أصول التفسير وقواعده ، د/ خالد العكك ص (224) ، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، هيئة الإعجاز العلمي بمكة ص (106)، إعجاز القرآن الكريم، أ/ د فضل حسن عباس ، ص (259-260)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ /د فهد بن عبد الرحمن الرومي ، ص (99)، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للمصلح والصاوي ص (31-34).

(4) انظر: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي عبد الرحمن أبي بكر ص (351-370) ودراسات في علوم القرآن الكريم، د/فهد رومي ، ص (184-185) .

7- الالتزام بالمعاني اللغوية في اللغة العربية للآيات التي يريد إيضاح إشاراتها العلمية؛ لأن القرآن عربي.

8- أن لا يخالف الصحيح المأثور عن رسول الله ﷺ ولا يخالف مضموناً شرعياً في تفسيره.

9- أن يراعي سياق الآيات، وتناسبها ومؤاخاتها مع ما قبلها وبعدها، فيربط بينها لتكون وحدة موضوعية متكاملة.

10- مراعاة القواعد البلاغية والنحوية ودلالتهما خصوصاً قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة واضحة وكافية.

11- الحذر من الأخبار الإسرائيلية والآثار الواهية، وعدم الخوض في النصوص المتعلقة بالغيبيات التي استأثر الله بعلمها.

وأخيراً فإن التزام هذه الضوابط ممن يفسر القرآن تفسيراً علمياً تمنعه من الانحراف، ومتى ما أخل بأحدها فقد يقع فيه وحينها فإن التبعة على المفسر لا على التفسير العلمي ذاته.

الخـاتمــــة

الحمد لله الذي منّ علي بختام هذا البحث والذي تحدثت فيه عن"الإعجاز العلمي بين القبول والرفض"، وبعد دراسة الموضوع ومعايشته أذكر بعض النتائج التي توضح معالمه، وهي كالآتي:

1- لا يمكن الفصل الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، إذ الإعجاز العلمي هو أحد أوجه التفسير للآية ذات المضامين العلمية.

2- إن القرآن الكريم أنزل ليكون هداية للناس يدعوهم إلى الإيمان بالله ويحثهم على العمل الصالح، وأحد وسائل الهداية إيضاح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

3-لم يذكر القرآن المظاهر الكونية إلا إشارة، وذلك راجع إلى أنه كتاب هداية، ومن شأن تفصيل هذه المظاهر أن يزيل عنه جمال الأسلوب المعجز، ويفقده روعة التأثير في النفوس، على أن تحديد التفاصيل في هذه الأمور مما لا تتفق عليه الآراء، ولا تجتمع عليه العقول والأفهام، فلو تعرض القرآن لذلك لكان محلاً لطعن الطاعنين.

4- يجب التنبه بشدة على ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي قابل للخطأ والصواب كلما اتسعت معارف الإنسان والوسائل المستخدمة لذلك. وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن هو توسيع مدلولها كلما أثبت العلم جديداً مما تشير إليه الإشارات المجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، دون أن يحمل النص على أن مدلوله هذا الذي كشفه العلم.

5- ليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية بحال من الأحوال، وما يبدو من ذلك لبعض الناس هو ناتج عن خطأ في فهم النص القرآني، أو عن خطأ في المعرفة العلمية نسبت إلى الحقيقة العلمية ما ليس منها.

6- يجب التصديق بأن ما جد في هذا العصر من إدراك علمي لآيات القرآن لا يعني أن حقائق القرآن قد تغيرت أو تطورت في ذاتها، معاذ الله وإنما الذي تغير ويتغير ويتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار بكثرة البحث والتجريب فيبدو له القرآن على حقيقة الأصلية الثابتة.

7- يعد الإمام الشاطي أبرز المعارضين والإمام الغزالي أبرز المؤيدين وعلى آرائهما بنيت آراء العلماء من بعدهم.

8- إن مراعاة الشروط والضوابط أثناء التفسير العلمي كفيل بأن يمنع المفسر من الانحراف عن الصواب، والخلل بأحدها وقوع في الانحراف وحينها فإن التبعة على المفسر لا على الآية ذاتها ولا على منهج التفسير العلمي ذاته.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .
1- اتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير الحديدي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، 1972م.
2- اتجاهات التفسير في العصر الحديث، عبد المجيد عبد المحتسب، دار الفكر، ط (1)، 1973م.
3- اتجاهات التفسير في القرآن الرابع عشر، أ/ د فهد الرومي، مكتبة الرشد، الرياض، ط (4)، 1423هـ.
4- اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشرقاوي، مطعبة الكيلاني، القاهرة، 1972م.
5- الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (1)،1421هـ.
6- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الفكر، بيروت، ط (بدون) 1995م.
7- الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد الغمراوي، ط (1) 1973م.
8- الإسلام والطب الحديث، عبد العزيز إسماعيل، طبعة 1957م.
9- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، دار البحوث العلمية، القاهرة، ترجمة ظفر الإسلام خان، ط (2)، 1393هـ.
10- أصول التفسير وقواعده، د/ خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، ط 1976م.
11- الإعجاز العلمي تاريخه وضوابطه، د/ عبد الله المصلح من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة، رابطة العالم الإسلامي، ط (1)، 1417هـ.
12- الإعجاز العلمي في القرآن (تأصيل فكري وتاريخ ومنهج)، سامي أحمد الموصلي، دار النفائس، بيروت، ط (1)، 1422هـ .
13- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ا/د عبد الله بن عبد العزيز المصلح، عبد الجواد الصاوي، من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تنفيذ: دار جياد للنشر والتوزيع، ط (1)،1429هـ.
14- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي. المكتبة العصرية، بيروت، (1425هـ) .
15- إعجاز القرآن الكريم، أ/ د فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان،ط (5)، 1424هـ.
16- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين المستشرقين)، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط (6)، 1984 م.
17- بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ/د فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، ومكتبة دار المتعلم، الزلفي ، ط (5)،1420هـ.
18- البرهان في علوم القرآن، للزركشي محمد بن عبد الله، علق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.
19- البيان في إعجاز القرآن ، د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، الأردن ط (3)، 1413هـ .

20- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرون، من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، ط (2) .

21- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984 م.
22- ترجمة الشيخ محمد الأمين، د/ عبد الرحمن السديس، دار الهجرة، الرياض، ط (12) (1411هـ)
23- تفسير الآيات الكونية، د/ عبد الله شحاته.
24- تفسير جزء عم، محمد عبده، طبعة بولاق، 1322هـ.
25- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، ولأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط (1)، 1425هـ.
26- التفسير العلمي للقرآن في الميزان، د/أحمد عمر أبو حجر، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط (2)، 1425هـ.
27- تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: أبي تميم وأبي بلال، دارالوطن، الرياض، ط (1)، 1418هـ.
28- تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، دار المنار، ط (4) 1954م.
29- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير محمد بن إسماعيل، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دارطيبة، الرياض، ط (2)، 1425هـ.
30- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط (6) 1974م.
31- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)، محمد فخر الدين الرازي، دار الفكري، بيروت 1993م.
32- تفسير المراغي، محمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (1) 1418هـ
33- التفسير معالم حياته منهجه اليوم، أمين الخولي، طبعة جماعة الكتاب، 1944م.
34- التفسير والمفسرون، للذهبي محمد بن حسين، دار إحياء التراث العربي ط (2)، ت (بدون)
35- الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري، مصطفى الحلبي، ط (2) 1350هـ .
36- جواهر القرآن، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار إحياء علوم الدين، بيروت، تحقيق محمد رشيد رضا القباني، ج (2)، 1406هـ.
37- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط (8)، 1403هـ.
38- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد محمد مخلوف، تصوير دار الفكر عن طبعة سنة (1345هـ) .
39- طبقات الشافعية، للشيرازي أحمد بن محمد، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتاب، بيروت، ط (1)، 1407هـ .
40- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تحقيق: عبد الفتاح محمود الحلو ومحمد الطناجي، دار إحياء الكتب العربية، ط (بدون) ت (بدون) .
41- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر أحمد العسقلاني / دار السلام، الرياض، ط (1)، 1421هـ.
42- القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.
43- لسان العرب، لابن منظور محمد بن مكرم، دار الحديث، القاهرة، طبعة جديدة مراجعة ومصمة بمعرفة نخبة من الأساتذة المتخصصين ط (بدون)، 1423هـ.
44- مباحث في إعجاز القرآن، د/مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، 1996م.

45- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر، دار الفكر ، بيروت، ط (بدون) 1412هـ.
46- مداخل إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بمصر، ودار المدني بجدة، ط (1) ، 1423هـ.
47- مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ط (1)، 1997م.
48- مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة عبد الله بن محمد، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط (1)، 1409هـ .
49- المعجم العربي الأساسي، لجماعة من كبار اللغويين العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، لدروس، ط (بدون)، ت (بدون) .
50- المعجم الفلسفي، لجميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (بدون)، 1414هـ.
51- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ضبطه: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط (1)، 1418هـ.
52- مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس بن زكريا، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ط (1)، 1422هـ.
53- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني محمد بن عبد العظيم، دار الفكر، بيروت، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، ط (1)، 1996 م.
54- منهاج الفرقان في علوم القرآن، محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا، 1938م.
55- الموافقات، للشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي، تقديم: الشيخ بكر أبو زيد، حققه: مشهور بن حسن آل سلمان، دار عثمان، الخبر، ط (1)، 1417هـ.
56- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، طبعة السعادة 1969م.
57- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د/محمد رجب البيومي الدار الشامية، بيروت، ط (1)، 1415هـ.